الفنون وضمائر الشعوب

للأستاذ سيد قطب

حين تفسد الفنون فى أمة من الأمم تفسد فطرتها ، والعكس صحيح ، فما تفسد سليقة الأمة حتى تتبعها الفنون ؛ ومن هنا كان اهتمامنا بمكافحة « الغناء المريض » لأننا نكره لهذا الشعب أن تفسد فطرته ، كما نكره له أن يكون عنوان هذه الفطرة هو هذا الغناء

والموسيقى والغناء أمسُّ بضمائر الشعوب من سائر الفنون ، فقد يكون الأدب كما يكون النحت والتصوير لغة جماعة من خواص المثقفين المدربين على الإحساس والفهم ، أما الموسيقى والغناء فهما لغة البداهة والتعبير المباشر عن أعماق السليقة

نعم إن الطبائع تتفاضل فى فهم الموسيقى والغناء والحس بهما ، ولكن يبقى مع ذلك فارق أصيل بين السلامة — وهى أولى درجات الفنون ، والمرض — وهو لا يلتبس على طبيعة مستقيمة أو فطرة سليمة

ونحن لا نتطلب من الملحنين والمطربين اليوم سمواً فى التعبير عن الفطرة الإنسانية ولا امتيازاً فى الإحساس على الجماهير ، ولكنا نقنع فقط بالسلامة فى الشعور الإنسانى ، بل نتواضع فنقنع بالسلامة الحيوانية ، غير أننا لا نجد حتى هذا المطلب المتواضع فيما يذيعونه من أغنيات ولحون

ويبدو أننا مبالغون فيما نطلب من هؤلاء الناس ، وأنه تكليف مجهد لطبائعهم ولثقافتهم ذلك التكليف الذى نسومهم إياه . وإذا كانت هناك بارقة من أمل فلن تكون فى محاولة توجيههم أو تقويم فطرتهم أو رفع مستوى إحساسهم ؛ فذلك ما لم يتهيئوا له ، ولكن المحاولة يجب أن تتوجه إلى وخز طبيعة هذه الأمة ، فإن كان فيها خير عافت هذا الترجيع وانصرفت عن هذا الترنيم ، وإلا فقد « وافق شن طبقة » وعفاء على الجميع !

ووجه المبالغة فيما نكلفه هؤلاء الناس أن الموسيقى والغناء مهما يكونا لغة الفطرة وتعبير البداهة ، فهما فى حاجة إلى طبائع سليمة ، وتلك موهبة لا يؤتاها إلا القليلون وإن كانت تبدو حقاً مباحاً للجميع ، وفى حاجة إلى ثقافة عقلية ونفسية كذلك وإلى فهم أو إدراك فنى لمهمة الفنون ، وتلك شقة بعيدة على نشأة هؤلاء القوم ، وآفاق لم يفتحوا أعينهم عليها ولم يتطلعوا مرة واحدة إليها .

الفن — شعراً كان أم تصويراً أم غناء أم موسيقى ... — هو « صورة الكون فى نفس إنسان » وهو « تبلور الحياة فى حس فنان » فهل ترى حين تقول هذا الكائن من كان من المشتغلين بالموسيقى والغناء فى مصر يحسبك تتحدث بلغة مفهومة أم يفغر فاه عجباً من هذه اللغة الغريبة التى لم يسمع بها فى لغة أبناء هذا الزمان ولم يحس لها تفسيراً فى نفسه وهو يعالج ما يعالج من ألحان ؟!

الموسيقى والتلحين ، ها هذا الذى يدرسونه فى معهد الموسيقى الشرقى من السلم الموسيقى والمسافات فى النوتة والتوفيقات التوقيعية بين وزن القطعة التى بين يدى الملحن وبين النغمات التى تناسبها — أيا كان معنى هذه القطعة وجوها الفنى فذلك آخر ما يفكر فيه الملحنون . فإن خرج (موسيقار مجدد) عن هذه الحدود ، فإلى بعض الألحان الإفرنجية وبعض ألحان سيد درويش : سرقة واقتباساً وتمزيقاً وتشويهاً ، وياليتها سرقة صريحة واضحة ولكنها « مرمطة » لهذه الألحان المسروقة حتى تلين وتتكسر وتتخلع وتناسب هذه الدغدغة الماجنة التى يدعونها تجديداً فى التلحين

هذه وتلك آفاق المشتغلين بالموسيقى والغناء فى مصر ، فما تكون إذن « صور الكون فى نفس إنسان وتبلور الحياة فى حس فنان » ؟ ما يكون هذا الكلام الذى يشبه المعميات والألغاز عند هذه النفوس الضعيفة الصغيرة ، وهذه العقول المسكينة المحدودة ؟!

بلغتنى قصة طريفة عن مولد قطعة غنائية يتمتع بها شبان البلد وشوابه فى هذه الأيام ، ولست متأكداً من صحة جميع تفصيلات هذه القصة ولكنها ليست بعيدة التصديق ولا متعارضة مع المعروف عن هؤلاء « الفنانين » !

قال مغنى القطعة لمؤلفها : ما رأيك فى « مايهونش » ألا ترى أنها تكون « مؤثرة » ؟ قال المؤلف : تكون ! . قال المغنى : وحياة أبيك تضع لنا عليها « طقطوقة » . . . فكان !

هذه قصة لا أجزم بصحة تفصيلاتها هى بالذات ولكنها تتفق مع ما أجزم به من طريقة تأليف القطوعات الغنائية وبواعثه وعن غناء هذه القطع وأسبابه فى نفوس المؤلفين والمطربين ، فليست هذه البواعث أحاسيس نفسية تبث بالقطعة فى نفس مؤلفها ألفاظاً وأوزاناً وفى نفس مغنيها نغمات وألحاناً

فكيف يتأتى إذن لهذه الأغانى أن تكون شعوراً إنسانياً كريماً ، أو شعوراً حيوانياً وتلك بواعث القول والغناء عند هؤلاء وهؤلاء !

ولكننى أغمط التأليف الثنائى حقه حين أسوى بين مستواه ومستوى التلحين والغناء فى هذه الأيام ، فنحن إذا تجاوزنا عن المؤلفين المحترفين الذين يطنون كالذباب حول المطربين والمطربات نجد آخرين من كرام الشعراء ومشهورى الأدباء قدموا بعض مقطوعاتهم للغناء ، ولكنها خرجت من يدى الملحن جثثاً هامدة بعد إخضاعها للنغمات المحفوظة والترنيم الممجوج

ولو سارت خطوات الموسيقى والتلحين فى مصر على هدى خطوات الشعر ، لكان لنا فن موسيقى محترم ، ولكننا شيئاً فى رقعة العالم المريضة التى تموج بالفنون الحية ، بينما نحن منها فى الرميم

ولا زلت أذكر أن مطربة كبيرة مشهورة ذات صوت فريد فى جوهره مستعد لأداء كل النغمات ، كانت تغنى فى مناسبة بهيجة قطعة تفيض ألفاظها غبطة ، ولكنى كنت أتصورها هناك وراء « الميكرفون » وهى تعتصر دموعها اعتصاراً وتنوح نوح المفجّع المكلوم !

وإذا ذكرنا الأصوات فلنعترف مرة أخرى أن لدينا منها ثروة لم نحسن استغلالها بالتلحين ، كما لم نحسن استغلال ثروة التأليف ، فالتلحين هو علة العلل ، لأنه جوهر الإحساس الفنى وموجّه الأصوات والأنغام ، وهو فى أيدى هؤلاء الفارغين المشوهى الفطرة ، بل فى يد هذا الحطام الآدمى الذى لا يقوى على إحساس الآدميين

وكل لفظ مؤدب عف لا يكفى لتصوير جريمة التلحين على بعض المطربات والمطربين ، وعلى سبيل المثال أذكر المطربة « أسمهان » فى جوهر صوت هذه المطربة تعبير عن لذة الغريزة وفورة الجنس ، وهو فى نظر المعدمين من التعبير السليم مثلنا مكسب كالكعكة فى يد اليتيم ! لأن السلامة الحيوانية مطلب من المطالب البعيدة عنا فى عالم الغناء ، ولكن التلحين المشئوم لم ينتبه إلى هذه الخاصة فى ذلك الصوت ، فما هى إلا أغنية أو أغنيتان تبدو فيهما حتى تتوارى وراء التلحين المريض الشائه والتكسرات المشوشة التى ينفر منها حتى الحيوان السليم !

وبعد فما كان لنا أن نأمل شيئاً فى محترفى الغناء والتلحين ، ولكن أملنا كله كما أسلفت فى طبيعة هذه الأمة ، وفى ضمائر القلة القليلة التى « لم تشرب من النهر » أن يثيرها الاشمئزاز من كل ما ترجعه الأوتار والحناجر فى هذه الأيام ، وأن تدفعها حوافز البشرية الحساسة ، فتقوم بالدعاية الواجبة فى كل مجتمع وكل صحيفة ضد هذا الزيف الكريه

ولقد حدث للأستاذ « عبد الحميد يونس » المذيع بمحطة الإذاعة برنامجه المختار « نصف ساعة من الموسيقى الغربية » وهممت أن أرسل إليه — على غير معرفة — رسالة شكر وإعجاب بحسن اختياره للاسطوانات التى أذاعها لولا أن صرفتنى عن ذلك بعض المشاغل العارضة

وإنى لأذكر ذلك اليوم علاجاً مضمون العاقبة للسامعين وجرعة منبهة إلى ما فى الكون من تعبير رفيع عن المشاعر الإنسانية فى الموسيقى العالية يجب تكراره وتكراره كل يوم ضمن برامج محطة الإذاعة لا بين الحين والحين

وإنى لأخشى أن يكون وقف هذا البرنامج ثمرة لسعى بعض المشهورين بالغناء المريض ، فقد كان فى بعضه كشف لمواضع مرقاته وفى بعضه عرض لمثل حية رفيعة تعاف النفوس بجوارها فنهم الرخيص .

سيد قطب

إعلان مناقصة

وزارة الزراعة بالدقى تطرح فى المناقصة العامة عمل التعديلات المطلوبة بشفخانة تفتيش السرو لجعلها معملا للألبان وتقدم العطاءات داخل مظاريف مختومة بالشمع الأحمر ومصحوبة بتأمين ابتدائي قدره اثنان في المائة من قيمتها وستفتح المظاريف ظهر يوم ٣ مارس سنة ١٩٤١ بتفتيش السرو ومقره بجوار محطة طلمبات الأسكندرية الجديدة

والوزارة الحق فى قبول أو رفض أي عطاء بدون إبداء الأسباب — وكل عطاء لا يكون مصحوباً بالتأمين الابتدائى لا يلتفت إليه

ويمكن الاطلاع على الاشتراطات وجميع ما يلزم من البيانات واستلام القوائم من مكتب هندسة وتفتيش السرو نظير مبلغ ٢٠٠ مليم القائمة الواحدة ٧٢٨٦